اعتاد الذين تقدمت بهم السنون وتخطت بهم حدود الشباب فلم يعودوا يتأثرون بما يتأثر به الشبان من عواطف ، والذين درجوا على الخلاعة وشبوا فى جوها الزاهى حيث لامقام لشعور أوقرار لعاطفة ، أن يهزأوا بأخبار الحب جملة ظانين أنها لا تعدو أن تكون صورا وأقاصيص من نسج خيال القصصيين والشعراء ؛ إلا أن خبرتى بدخيلة النفس الانسانية تحملنى على ألا أرى رأيهم ؛ فقد هدتنى التجارب الى أن المرء قد يبدو فاترا باردا لشواغل الدنيا وهمومها ، وقد يطالع الناس هاشاً باشاً مراعاة لمراسم المجتمع وآدابه ، إلا أن وراء هذا الظاهر الهادىء نيراناً كامنة ترقد فى أعماق أبرد الصدور ، وهى نيران إذا أثارها مثير احتدمت احتداماً لا يعرف مداه ، وقد تسوء عقباه . الحق أنى مؤمن قوى الايمان بذلك السلطان الأعمى ذاهب مع تعاليمه الى أقصى حدودها . إنى مؤمن بالقلوب المحطمة إيمانى بأن خيبة الحب فى رجائه قد تعجل بفنائه ، ولكنى لا أرى الحب مرضا كثير الفتك ببنى جنسى ، فى حين أنى أؤمن الايمان كله بأنه المرض الذى يصيب كثيرا من النساء اللطيفات فيزعجهن ويذهب بهن ومازلن فى مقتبل العمر وشرخ الشباب

إذ أن الرجل له مصالح وأطماع ، وطبيعته تدفعه إلى ولوج ميدان الحياة ، والكفاح فى معمعانها الصاخب ، والحب عنده ألهية فى مقتبل حياته ، أو أنشودة ينشدها فى أوقات فراغه ، وذلك لأنه فى شغل عنه بما يطمح اليه من شهرة ، وما يسعى وراءه من ثروة ، وما يروم تحقيقه من فكرة ، فهو لا يفتأ مشوقا الى بلوغ ما يصبو اليه من سؤدد بين أنداده من الرجال ؛ أما المرأة فكل حياتها نهب للعواطف ، وما سيرتها إلا تاريخ انوازع القلب ؛ فالقلب دنياها التى تطمع فيها الى فرض سلطانها وإقرار مكانها ، وفيه تنقب عما تتمناه من مخبوء الكنوز ، فتطلق كل جارحة فيها للمغامرة ، وتنطلق بكل روحها مع سفين العواطف ، فان غرقت سفينتها فقد خاب الرجاء فيها ، إذ معنى ذلك افلاس قلبها ودوال دولتها

قد تسبب خيبة الحب للرجل آلاماً ممضة ، وقد تجرح بعض ما رق من أوتار قلبه ، وتعصف ببعض معالم هنائه ، إلا أنه مخلوق عامل يستطيع أن يبدد أفكاره ويصرفها بالاندماج فى دائرة الأعمال المنوعة ، كما أن فى وسعه أن ينغمس فى اللاهى والمسرات ، أو يبدل مقر سكناه إذا رأى أن المسرح الذى مثلت عليه فصول مأساته محاط

بملابسات لا قبل له بتحمل ما تسببه له من غصص وآلام ، فيرحل الى حيث يشاء متخذا أجنحة الصباح طائراً الى أقاصى البلاد حيث يخلد الى الراحة والسكينة

أما حياة المرأة فهى بالنسبة الى حياة الرجل حياة استقرار وعزلة وتأمل ، وهى أكثر اصطحابا لأفكارها وعواطفها ؛ فاذا ما استحالت هذه الى رسل ودواع للألم والحزن فالى أين النجاء ، وأين تلقى العزاء ؟ إن حظها من الحياة أن تحب وأن تُنال ، فاذا ما ساء حظها وخاب فألها فى حبها فشل قلبها فى ذلك مثل القلعة تقع فى أيدى الأعداء فتُنهب وتسلب وتترك خواء

كم من عين متألقة خبا ضياؤها ! كم من خد أسيل غدا شاحبا ! كم من وجه جميل ذوى وطواه الردى دون أن يدرى امرؤ السبب الذى أودى بتلك النضارة ! فمن طبيعة المرأة أن تخفى عن العالم آلام عواطفها المجروحة كما تضم الحمامة جناحيها إلى جانبيها تخفى بهما السهم الذى يوغل فى مقاتلها . وحب المرأة الحساسة هادىء خجول ؛ ومهما أصابت فى حبها من توفيق فقلما تهمس به لذات نفسها ؛ أما إذا خاب رجاؤها فى الحب أودعته طيات صدرها وتركته هناك فى هم واصب بين طلول أمسها الذاهب ، فقد أخفقت آمال قلبها وانتهت بهجة الحياة الكبرى عندها ، فهى عندئذ تعاف الألعاب البهجة التى تنعش الفؤاد وتسرع النبضات وتدفع تيارات الحياة والصحة فى العروق ، وهى فى حالها تلك تقلقها الأحلام السود وتفزعها فى نومها ، ويمتص الأسى دماءها حتى ليمسى جسمها من الوهن والهزال ينقض ويتهدم تحت أضعف مؤثر خارجى . فاذا ما سألت عنها بعد قليل وجدت الأصدقاء يبكون على قبرها وقد عاجلتها المنية فى وفرة صباها ، فتعجب ما شاء لك العجب كيف هبطت الى عالم الظلام والديدان تلك التى كانت تشع الى عهد قريب ضياء الصحة والجمال ! فيقال لك أصابها برد أو مرض شائع فتوفاها ، وما يدرى أحد منهم ذلك المرض الفكرى الذى سبق فاستنزف قواها وتركها فريسة لأدنى المؤثرات

مثلها مثل الدوحة الفينانة تزهر الغابة بها وتزدان ، تقف رشيقة القد مياسة الأغصان وريفة الأفنان بينا ينهش الدود لبها فيسرع اليها الذبول حين يرجى إشراق نضرتها وازدياد توريقها ؛ وعلى غرة تراها وقد مالت بأغصانها الى الأرض وأخذت تتساقط أوراقها ورقة ورقة الى أن تضمحل وتموت فتهوى فى سكون الغاب . فاذا ماتأملنا هذه الانقاض الجميلة أخفقنا فى تعليل ميتتها محاولين عبثاً أن نذكر تلك العاصفة التى عساها أن تكون قد أطاحتها ، أو تلك الصاعقة التى لعلها تكون قد صعقتها

لقد لاحظت بعض النساء وهن منحدرات بخطى سريعة نحو الذبول وقد أهملن شأنهن فاختفين من الوجود على مهل كأنهن تبخرن فى الهواء . ولقد ظننت مراراً أنى أصبت الحقيقة حين عزوت وفاتهن إلى آلام السل المهلكة تارة ، والى البرد تارة ، والى الهزال مرة والى الأحزان مرة ، ولكنى وجدت فى النهاية السبب الحق وهو يأس الحب وضيعة الأمل

كل يذكر ولا ريب قصة ذلك البطل الارلندى الشاب « ا . . » فهى قصة كان وقعها أليما بحيث

لا يمكن أن تنسى سريعاً ؛ فقد حوكم إبان الاضطرابات الأرلندية متهماً بالخيانة ونفذ فيه حكم الاعدام بالشنق ، وكان لخاتمة حياته الفاجعة صدى عميق فى قلوب الجمهور ، إذ كان شاباً فى ميعة الصبى وزهرة الشباب ، متوقد الذهن ، كريم النفس ، شجاع القلب ، كمل فيه كل ما يحب فى الفتى من كريم السجايا وحميد الصفات ، كما كان سلوكه أثناء المحاكمة سامياً تجلت فيه بسالته وإقدامه ؛ وكان لغضبته النبيلة فى دفع تهمة الخيانة عن نفسه ، ولدفاعه الرائع عن اسمه ، ولندائه الحار للأجيال المقبلة وهو فى موقف الاتهام وساعة اليأس صدى داو فى أعماق كل صدر كريم ، حتى ان أعداءه أنفسهم نددوا بتلك السياسة النكراء التى قضت عليه بالقتل

ولكن قلباً واحداً بين هذى القلوب فاقت حسرته ولوعته كل وصف ، ذلك هو قلب تلك الفتاة الجميلة ابنة أحد مشاهير المحامين الارلنديين التى كان قد نال حبها أيام سعده وتوفيقه ، وكانت هى قد أحبته لأول ما أحبت بتلك الحماسة التى تحب بها المرأة حبها الأول فى مقتبل أيامها . لقد كانت تحبه أيام محنته ، أيام تألبت عليه أقاويل الناس وأحكامهم ، أيام عصفت العواصف بماله ، وتهدد العار والدمار اسمه ، وأحاط به السوء من كل جانب . ولقد كان يزيد حبها له معاناته لتلك الآلام ، فكيف بها اليوم وكيف ألمها وهى التى كانت تهيم بطيفه وتشغف بخياله . وقد حرك المصاب نفوس عداته . سل عن ذلك من سدت أبواب القبر بغتة فى وجهه ، وفرقت بينه وبين من لم يعدل به وبحبه أحداً ، وقد جثا على حافة القبر كالمطرود فى دنيا باردة موحشة ذهب عنها كل ما هو محبوب وكل ما هو جميل

يا لهوله من قبر ! كم هو مخيف ! كم هو مهين ! وقد خانت الذاكرة مما عساه أن يخفف غصة الفراق . ولم تستطع تلك اللابسات الوديعة وإن خالطها الغم ، أن تذيب ذلك الحزن فى تلك الدموع المباركة التى تنزل كالطل من السماء برداً وسلاماً على القلب فى ساعة الفراق الممضة

ترملت ، وزاد فى وحشة حياتها أن تلك الصلة قد أثارت غضب والدها وسخطه فنفاها من بيته . ولو أن صديقاتها روعت نفوسهن ومنعهن الخوف أن يهبنها عطفهن ، لما أعوزها العزاء ؛ فالارلنديون قوم حساسو النفوس كريمو الشعور . ولقد مدت إليها بيوتات كريمة يد المعونة وأحطتها برقيق الرعاية وقدمتها للمجتمعات ، وحاولن الترفيه عنها بشتى اللاهى والمسرات لتزول عنها حزنها ولتبعد عن فكرها ذكرى مأساتها ، إلا أن ذلك كان عبثا فى عبث ، فان من النكبات ما يتلف النفس ويذويها وينفذ إلى منبت السعادة فيسحقه سحقاً فلا يعود إلى إنبات . أما هى فلم تأب التردد على منتديات السرور ، ولكنها كانت فيها منفردة بنفسها موكولة الى أساها ، فكانت تسير فى وجوم يغيب فيه الشعور بالدنيا التى تموج حولها . وكانت تحمل فى نفسها على الدوام هما دفيناً يسخر عداعبات الصديقات ، ولا يحفل بسحر الغناء ولا بجمال الرقص

لقد رآها من روى لى قصتها فى « كرنفال » وقد أخبرنى أنه لم ير منظراً للبؤس أكثر إيلاماً للنفس من رؤيتها فى هذ الحفل الحافل تمشى كالخيال الضارع وحيدة كئيبة بينما كل ما حولها زاه بهيج

وقال لى إنه رآها تلبس حلل المرح فى حين تسير ساهمة الوجه ممتقعة اللون يغمرها الأسى كأنما تحاول عبثاً أن تخدع قلبها لحظة تنسيه فيها حزنه المقيم .

وبعد أن طافت بالحجرات الفاخرة وجالت بين ذلك الحشد الصاخب شاردة اللب جلست على درج منصة الموسيقى ؛ وبعد أن نظرت فى الفضاء برهة وهى شاخصة الطرف يبدو عليها عدم الشعور بجمال المناظر من حولها ، أخذت تغنى ، شأن القلب العليل فى تقلب أطواره ، فكان شدوها باكياً . لقد كان صوتها رخيما إلا أنه فى هذه المرة كان مؤثراً بسيطا ، فتنفست عن نفس بائسة ، والتف حولها الجميع وساد السكون ، فاذابت النفوس وأدمعت العيون

لقد أثارت قصتها شغف الناس ؛ إذ أن قصة سعيدة على ذلك الاخلاص وهذا التفانى لا بد أن تثير إعجاب الناس فى بلد عرف أهلوه بالحماسة والوفاء ، فأحبها وأغرم بها ضابط باسل خطبها وهو يحدث نفسه بأن من كانت تخلص هذا الاخلاص للميت ، تظهر ولا شك مثل هذا الاخلاص للحى ؛ إلا أنها خيبت أمله فى ذلك إذ لم يكن فى وسعها أن تصرف فكرها عن ذكرى حبيبها الأول . على أنه أصر على طلبه قائلاً : إنه يكفيه منها التقدير بديلاً عن الحب . وساعده عليها اقتناعها بجدارته وعوزها واعتمادها على الغير ، اذ كانت تعيش على فيض ما تجود به الصديقات ، فنجح فى النهاية فى الحصول على يدها مع تأكيد رهيب بأن قلبها ما زال ملكا لغيره ولا سبيل إلى صده عن هواه

سافر بها إلى سيسلى لعل تبديل المناظر يمحو ذكرياتها القديمة . ولقد كانت رقيقة القلب مثال الزوجة الصالحة ، فحاولت أن تسعد زواجها ، إلا أن هذا الهم الساكن وذلك الحزن الكامن لم ينجع فيهما علاج

فذبلت رويداً رويداً ، وأخذ منها الهزال مأخذه ، فسارت وشيكا إلى انحلال لا أمل فى البرء منه ، وهوت أخيراً إلى قبرها ضحية القلب المحطم

وقد نظم فيها مور الشاعر الأرلندى الشهير أبياته الآتية :

بعيدة عن الأرض التى بها مثوى بطلها المحبوب ،
يلتف حولها المحبون وهم يصعدون الزفرات ،
إلا أنها تشيح عنهم بوجهها وتأخذ فى النحيب
فقد علق قلبها بالثرى الذى ضم الحبيب ،

* * *

تنشد أغانى الفطرة عن مواطنها السذج الأعزاء
مؤثرة ما كان يحبه من بين تلك الأنغام .
آه ! ليس يدرى أولئك المحبون بألحانها
كم يتمزق قلبها وهى تشدو بأنغامها !

* * *

عاش لحبه ومات فى سبيل بلاده ،
وكان هذان كل ما يعنيه من دنياه ؛
وسوف لا تجف عاجلاً دموع بلاده عليه
ولا أمل لمن أحبه أن يعيش طويلاً من بعده

* * *

ابنوا قبرها حيث تستقر أشعة الشمس ،
حين تؤذن بغيابها بدنو غدٍ موموق ،
حتى تضىء عليها فى ضجعتها كبسمة من المغرب
من جزيرة الأحزان التى أحبتها وعلقت بها

(حدائق القبة) حسين محمد كامل